محاولة لدراسة

اللوحة في «الشوقيات»

بقلم الدكتور علي جواد الطاهر

لم تكن الدراسات التي صدرت عن شوقي قليلة ، وقد ساد هذه الدراسات الطابع التاريخي ، فهنا حياته بين ميلاده ووفاته، وهنا بيئته ودمه ، وصلته بساسة زمانه ، وهنا مقابلة بينه وبين حافظ ، ومقابلة بينه وبين المتنبي ، وهناك وطنينه وعقيدته ، وهناك اغراضه في الرثاء والغزل والوصف والمديح ، الى اخره ، الى اخره .

وقد الممت بشيء من هذا وذاك ، والممت بشيء من شعر شوقي ، وكلما بعد عهدي به .. قويت في نفسي خاطرة ، خاطرة خلاصتها ان التاريخ في الدراسات الشوقية غلب الفن وان ما حول النص منها اغرق النص .. وليس التاريخ فنا وليس الشعر تاريخا .

ويتباعد العهد ، وتقوى الخاطرة ، وتتوضح وتتبين : ان صفة شوقي الغالبة هي التصوير ، فهو رسام ، وهو يعمل بالريشة اكثر مما يكتب بالقلم ، ولا يقف هذا عند غرض الوصف ، لا ولو كان ذلك ، لما كان صفة غالبة ، انما هو شأنه في كل اغراضه .

ثم تمر على وفاة شوقي ست وعشرون سنة ، وتفكر مصر في تخليد ذكراه ، وتطلب الي المشاركة وتحدد للتحضير ساعات محدودة ، لا تكاد تكفي لمحكوم عليه لان يدافع عن نفسه ، ذلك اننا لم نخبر بالمشاركة الا قبل المهرجان باقل من اسبوع ، وكان علينا ان نهيىء في هذه المدة الوجيزة الف شيء وشيء ، وفي زحمة هذه الاشياء .. وزحمة ذلك الوقت ... عاودتني خاطرتي القديمة ، فعدت الى الشوقيات ، ورأيت – فيما رأيت :

ان غير قليل من صور شوقي قد اوهنته الايام ، وافقدته شيئا من روائه ، وان شوقي كان يستعين بالمبالغة التي يتذوقها عصره ، فتشغله عن الصورة نفسها ، ولا بأس – بعد ذلك لديه – ان تكون نتيجة للتعجب الارادي القصدي ، وان من هذه الصور ما اكتنفته النثرية ، فتقطع في سلك كلماتها تيار الوحي الصادق . وان وصف الطبيعة – ان احتل مكانا من الديوان – فانه ليس على درجة عالية . فقد غلب عليه الجفاف ، وساورته النثرية ، وان كثيرا من لوحاته التي حاول ان يجمع على سطحها اكثر من منظر واحد ، اقرب الى الكليشة والفوتوغراف منها باللوحة، اي انها لم تعن كثيرا بالاختيار ، وتراكمت فيها الاحصاءات ، ولم يميز فيها بين ما يؤخذ وما يترك في التفصيلات. هذا ما بدا لي، ولكن الكلام عليه يخرج قليلا عن مجال المهرجانات . ثم انه – ان كان صحيحا ، لا يحول دون دراسة الصور عند شوقي ولا يحول دون العثور على صور تستجاد وتستملح مما يبرر الدراسة ، ويقف الناقد والقارىء على آثار نبيله ، فيها براعة ، وفيها قوة ... وجدة وابتكار ، ... وتطرب الحاسة الفنية، وتبعثها على الاعجاب بالاثر ، وعلى الاعجاب بالشاعر .

اجل ، ان الصفة الغالبة في شعر شوقي هي التصوير . وكان هم النقاد القدامى ينحصر بالجزء الصغير من الصورة مما ينطوي عليه البيت الواحد . وكان اثر هؤلاء النقاد ظل قائما في دراستنا الحديثة ، فما رأينا عناية كافية بالصورة وباللوحة – وهما اوسع من التشبيه والاستعارة. ولا يعدم البلاغي ان يجد عند شوقي امثلة كثيرة، على مفردات بحثه ، بل انه ليستطيع ان يجد امثلة ناجحة واكثر من ناجحة : ألم يكن شوقي هو القائل : –

لله انت فما رأيت على الصفا ... هذا الجلال ولا على الاوتاد
والقائل: هذا فضاء تلم الريح خاشعة ... به ويخشى عليه الدهر محتشما
والقائل:فأعرض عن قواده الجند شاردا ... وعلمه قواده كيف يهرب

يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى ... ويقضم بعض الارض بعضا ويقضب
والقائل: أقام على الشفاه بها غريبا ... ومر على القلوب فما اقاما
والقائل: جرى وصفق يلقانا بها بردى ... كما تلقاك دون الخلد رضوان
والقائل: وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني اليه بالخلد نفسي
والقائل : وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق

لقد قال شوقي كل هذه الروائع ، ونترك للبلاغيين من اهل البيان والمعاني ... امر العناية بها .. ونسير ، فما كان غرضنا الاول – مهما تدل هذه الجزئيات على المخيلة

ان غرضنا الاول هو البحث عن اللوحة ، او بمعنى ادق ، عن اللوحة المختارة – اي الصورة التي لا تقف عند الجزء ، وانما تستقصي الاطراف، وتلتفت الى دقائق التفصيلات ، عارضة وحدة – او وحدات صغيرة – رآها الشاعر حقيقة نابضة في مخيلته ، ويراها القارىء وحدة مستكملة الاعضاء ، منسجمة التلاوين ، فتثير فيه شعورا يشبه الشعور الذي يبعث « الرسام » على النظام والاجادة ، وتوحي اليه اشياء اخرى يضيفها عليها من نفسه ومن ظروفه ، ويقترب الاثنان كلما اقتربت المخيلة ، وكلما تقاربت الظروف النفسية .

ونستعرض حياة الشاعر ، ونستعرض شعره ، ونبحث عن اطوار النعيم ، واثار حفلات الرقص والقصف ، وانعكاسات البلاط .. ونبحث في الذي نظمه ليسجل هذا الطور في حينه ، فلا نجده موقفا . وتسير في معرضه ، فلا يستوقفك منه شيء ذو بال ، لانك لا ترى رواء ولا تحس ريا ، انما هو وصف ، ووضع الاسود الى جانب الابيض ، فتمر مر الكرام ، وتسير ، فتجتذبك صور اخرى هي غير تلك الصور ، او انها تلك ، او شيء منها ، عندما اصبحت ماضيا .. وباتت ذكريات . فحفظ منها الزمن الاقوى الذي ادخر عاطفة زادها الموت حياة ، وجعل لها نفاذا من وراء اللفظ واشعاعا من خلف الالوان .. وظلالا لدى الاطار .

وكلنا يعلم ان شوقي عاش مدة في باريس ، وكانت له فيها اوطار واوطار ، وكان غاب بولونيا من مسارح تلك الاطوار . ولكن شوقي لم يحدثنا عن الغاب ايام الغاب ، ولم يصور لنا الاوطار ايام الاوطار والشباب، عهد الشباب ، والهوى .. عهد الهوى .. لا . فقد مر الزمان ، ولاذت الاحداث في زاوية من زوايا النسيان .. ثم « يرى » الشاعر الغاب ،

فيستيقظ الوجد ، ويخفق القلب ، ولولا ذاك ، لما بلغتنا عن ذلك الغاب على لسانه رواية ، ولما عرفنا ان له من قلبه مكانا ـ هذا المكان الذي يجلوه بقوله :

هلا ذكـرت زمـان كنـا والزمـان كمـا نريـد
نطوى اليك دجى الليـا لي ، والدجى عنـا يذود
فنقـول عنـدك مـا نقـو ل ، وليس غيرك من يعيد

في كـل ركـن وقفـة وبكـل زاويـة قعـود
نسقـي ونسقي والهـوى مـا بـين اعيننا وليـد
فمـن القلوب تمـائم ومن الجنوب لـه مهـود

حتى اذا دعـت النـوى فتبدد الشـمل النضيـد
بتنـا ومـا بيننـا بحـر ودون البحـر بيـد

أيام حلوة ، صافية ، زاهية ، مؤاتية تتخللها خطوط عنيفة من الهوى ، وهادئة من الرضى . ولكنها لم تصل الينا كما هي ، وكما كانت ، انما وصلت ذكرى ، ذكرى يكتنفها سواد الحسرات فيقلل من روائها وبهائها . وقد يكون هذا اكثر تأثيرا في نفوسنا ـ ولكن الذي وقع وقع ، وهو ان الشاعر لم يصور الشباب في شبابه ، فيبدو وضاء وضاحا . ويقف المشاهد ازاء هذه اللوحة ، فيصيبه من حاضر الرسام شظايا ، ومن كابته كابة . ولو وقف ازاءها يوم كانت حاضرا لغمره المرح والفرح ، وربما الغبط والحسد. وتجتذبنا اللوحة ، فنجدها اكثر تأثيرا من مشهد، فها هوذا الرسام « ازاء مصدر روحية » . وها هوذا يرجع الى ماضيه شيئا فشيئا ، حتى ينقطع عما حوله تمام الانقطاع . وهاهوذا الماضي حاضر .. حي بين رواح ومجيء، وقيام وقعود وهو وصبابة .

ونعود من جديد ، ونعيد النظر بعين الممتحن المتفحص ، اكثر من عين المتأثر المأخوذ . فنرى الرسام ، انما نجح اول ما نجح ، في ما صور من اوطار قلب ، محب ، كانت له في « الغاب » ايام سعد وسعادة ، وما زالت هذه المشاهد عميقة في نفسه ... ولكنه عرضها عرض شاعر عربي لا يبدو انه تأثر بالشعر الغربي وبالرسام الغربي . اما حبيبته فلم نعرف عنها شيئا ، ولم نتبين سماتها ، وانك لا تستطيع حتى ان تقول انها فرنسية .

ويحاول ان يعني « بالوسط » الذي كانت تجري فيه مثل هـذه الاحداث ، فلا يطاوعه تيار الوحي كثيرا ، ولا يسايره في خطوطه ، وقد يفارقه في منتصف الخط ، فيظل النصف الثاني « مظلما » مثـل «والرياح به هجود » ومثل « والناس نامت والوجود » او يفارقه في الخط كله فيأتي ناشزا ، ومثل :

فنبيت في الايناس يغـ بطنا بها النجم الوحيـد
والغصن يسجد في الفضـا ء وحبذا منذ السجود

وليست هذه الاحيائية التي سكبها على الطبيعة ، احيائية الرومانتيكيين، انما هي احيائية البلاغيين العرب في امثلتهم في الاستعارة المكنية ـ وشتان .

ولو سار شوقي في احيائيته على نهج : نطوي ... فنقول ... لكان للوحة شأن أخر ، لان المهم في اللوحة ، ما وراء خطوطها من قوة وحياة .

ثم ان الاطار الذي تعرض داخله مهم ايضا ، ويشترط في هذا الاطار ان يكون جزءا لا يتجزأ من الصورة ، وان يكون له من الحياة مالها ، وعليه من الظلال ولكن ، اين غاب بولونيا وهو مسرح تلك الاوطار ومسراها ؟ تبحث عنه ... فلا تجد له اثرا البتة . اين « البحيرتان » ؟ اين الاحبة في الزوارق .. وبين حنايا الشجر .. متعانقين ، ولدى مسارب الدروب ... متخاصرين ، واين البواسق واين الزحمة ... واين اين . تقول انه لا يريد ان يرسم منظرا « واقعيا » ، فليكن ذلك ، ولكنه لـم يرسم شيئا من غاب بولونيا ، ولعله رسم اشياء غريبة على الغاب ... استعارها له ، من بساتين مصر مثلا . ولئن كان ذاك ... وليكن ، .. فلم يقصر الشاعر في رسم اوطار القلب ، كما بقيت « قائمة بين الضلوع».

تلك وقفته في غاب بولونيا وله وقفة اخرى .. في زحله(٢). ويتساءل المرء هذه هي زحله ؟ ويجيب كل من رآها : لا ... ثم أين هو شوقي وراء الكلمات والسطور ؟ لا تجد منه شيئا . انما هي مبالغات تكاد تكون تعليمية ، فهي اوصاف عامة ، جاهزة ، فان كان الشاعر قد وصف الوادي قبل ان يراه .. فان الابيات مقبولة في مكانها ، وان كان قد اراد ان يرسم ما يرى ماثلا امامه ، ففي الابيات مصداق لما قلناه من انه لا يجيد رسم المناظر الطبيعية التي تقع عليها عينه ، وانه لا يستطيع ان يرسم الحاضر .

ولكن الذي يستوقف المشاهد من « زحلة » شيء غير زحله ، تستوقفه ذكريات الشاعر ، اي حاضره الذي كان ماضيا .

لكاتبة الرائعة الصيت صوفي عبد الله في :

شيعت احلامي بقلب باكي ... ولمت من طرق الملاح شباكي
ورجعت ادراج الشباب ووردة ... امشي مكانهما على الاشواك
وبجانبي واه كأن خفوقه ... ـ لما تلفت جهشه المتباكي
شاكي السلاح اذا خلا بضلوعه ... فاذا أهيب به فليس بشاكي
قد راعه اني طويت حبائلي ... من بعد طول تناول وفكاك
ويح ابن جنبي : كل غاية لذة ... بعد الشباب عزيزة الادراك
لم تبق منا يا فؤاد بقية ... لفتوة او فضلة لعراك
كنا اذا صفقت نستبق الهوى ... ونشد شد العصبة الفتاك
واليوم تبعث في حين تهزني ... ما يبعث الناقوس في النساك

هذه لوحة ، ولوحة جيدة ، تمثل شيخا ، كان لشبابه في الغرام صولات وجولات ، ولقلبه معارك وانتصارات ، وقد تكون مبالغا فيها ، ولكنها هكذا تبدو ، وهكذا يحسها ربها .

وتمر الايام ، ويمضي الشباب ، ويخلف هيكلا ، يضم داخله شيئا كان في يوم ما قلبا . ويحاول ان يغالط نفسه ، فيتعرض للمرأة ... وهيهات ، فما لمرأة فيه طمع . وما عليه الا ان ينسحب ، حزينا كاسف البال ، يروح ويجيء في باطنه شيء يابس ، فقد لباقته وطاقته ولم تبق فيه الا اطياف ماض نقض حاضره . وما اشد الانسجام في لوحة التقى فيها الهيكل .. الباهت بهذه الالياف اليابسة ، التقيا ، وكان رابطهما

(٢) الشوقيات ٢ : ١٧٧ ـ ١٨٠

الماضي ، بل ذكرى الماضي الماضي، بل الاسى عليه ، والاسى على ذكراه . ويودع الهيكل صاحبه الذي يسميه قلبا على سبيل التجوز ، ويعترف بالحقيقة المرة ، ان لم تبق لهما بقية لفتوة ، او فضلة لعراك . كل شيء منسجم في هذه اللوحة، والحسرة تنعكس من ثناياها وهذه الحسرة الصادقة هي التي وهبتها هذه القوة ، وهذه الحياة ، وبعدت بها عن الرصف التعليمي على ان نتذكر ان ليست لها اية صلة بزحله ، وانها ثمرة من ثمار الماضي لم تقتطف في حينها

وتسير في القصيدة فترى لوحة اخرى ، هي لوحة « جارة الوادي » وفيها جودة دون ان تكون ذات صلة مباشرة بزحله ، ولكن ، لها الصلة كلها في ما نحن فيه من ان شوقي يجيد استعادة الماضي واستحضاره واحياءه :

لم ادر ما طيب العناق على الهوى ... حتى ترفق ساعدي فطواك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت ... عيني في لغة الهوى عيناك
ومحوت كل لبانه من خاطري ... ونسيت كل تعاتب وتشاكي
لا امس من عمر الزمان ولا غد ... جمع الزمان فكان يوم لقاك

ولم تصل الينا هذه اللوحة بالوانها الحمر الشديدة الحمرة ، السود الشديدة السواد ، انما جاءت في ظلال الحسرات ، واطلت من وراء الاسى.

وصحيح ان الذكريات مهمة في دنيا الرسامين ـ وغير الرسامين ، والرومانتكيين خاصة . وانها رصيد غزير يأخذ طريقه الى حاضرهم من حيث لا يشعرون ولكن من الرسامين ، من اذا وقف ليرسم منظرا ، شغله الحاضر ، فعرضه بشكل يقرب من الشكل الذي تراه انت ، دون ان تستطيع الاعراب عن رؤيتك ، ولم يكن شوقي ـ كما رأينا ـ من هؤلاء، انه لا يرسم حاضره او بمعنى ادق ، انه لا يجيد رسم حاضره الا عند ما يصبح ماضيا ، او عندما يكون ذا صلة بالماضي.

ولا تقف هذه الظاهرة ـ ظاهرة سيادة الماضي ، عند حياة شوقي الشخصية ، انما تتعداها الى حياة مصر كلها .. فقد قال كثيرا في حاضرها الذي عاشه ، على اختلاف القول ، وعلى اختلاف الاحداث والاعلام ، ولكن اللوحات القيمات التي بقيت ماثلة ، هي لوحات من الماضي . ولعلك شهدت لوحة « انس الوجود » (٣)

أيها المنتحى « بأسوان » دارا ... كالثريا تريد ان تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع ... لاتحاول من اية الدهر غضا
قف بتلك «القصور» في اليم غرقى ... ممسكا بعضها من الدهر بعضا
كعذارى اخفين في الماء بضا ... سابحات به ، وأبدين بضا
مشرفات على الزوال وكانت ... مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت ... وشباب الفنون ما زال غضا ...

والشاعر في « انس الوجود » رسام يحاول ان يرسم ما يرى ، او ان يظهر للمشاهد بانه يرسم ما يرى ، فلقد احتوت اللوحة تلك القصور من مخلفات عهود سالفة بعيدة ، ولكنها لم تحوها كما تبدو لعامة الناس : قصورا متقاربة ، متلاصقة ، اغرقها النيل ، وقد اختفى جزء وظهر جزء. لان ذلك اغراق في الواقع ، وليس من الفن في شيء ، وهو تعليم وجغرافية وتاريخ ، والرسام غير المعلم .. وصحيح انه يعرض ما يرى ، وما يراه الناس ، ولكنه يعرض اعجابه ايضا ، وقد فعل ذلك شوقي ، فقد نقل اعجابه الى المشاهدين ، وجعلهم يرون في تلك القصور البيض اكثر مما كانوا يرون ، وجعلهم يرونها احياء ، مذعورة . ومصدر اعجاب

(٣) الشوقيات ٢ : ٥٦ ـ ٥٨

شوقي هو التاريخ ، وكون المنظر تاريخيا ، وان هذه القصور ـ على بعد الزمان بها ـ ما زالت حية حاضرة ، وكان للاعجاب شريك اخر في اثارة الشاعر ، هو الاسى على ما تعانيه هذه القصور من عوامل التلف .

وما كان بين شوقي وبين النجاح التام في كل اجزاء اللوحة الا السيطرة التامة على اصباغه ، فلقد اندس بينها ما يمكن ان يكدر الانسجام ، ولا ادري لم اختار شوقي « الضاد » قافية ، واكبر الظن انه اختارها اصطناعا، ليدل على « روزفلت » بلغة الضاد . ومع هذا تظل « انس الوجود » رائعة يرى القاريء فيها ـ على البعد ـ ما رأى شوقي ، ويتأثر بما تأثر به شوقي .

هذا الماضي ـ الماضي المصري ـ يظهر اكثر ما يظهر ، ويبدو اوضح ما يبدو ، عندما يقف شوقي ليصور ابا الهول (٤)، فلا يصور التمثال نفسه ، وانما يصور التمثال ، الاثر والاثار التي يتركها في الاخرين . ثم لا يلبث هذا « الاب » ان يثير شتى الاسئلة ، ذات الصلة بشوقي ، آنذاك ، فلقد بدا متشائما ، وبدا ضجرا ، حائرا .. وبدا طالبا للعبرة :

ابا الهول ويحك لا يستقـ ـل مع الدهر شيء ولا يحتقر
تهزأت دهرا بديك الصباح فنقر عينيك فيما نقر
اسال البياض وسل السواد واوغل منقاره في الحفر
فعدت كأنك ذو المحبسيـ ـن، قطيع القيام ، سليب البصر
كأن الرمال على جانبيـ ـك، وبين يديك ، ذنوب البشر

فعرض صورة لذلك الجبار المتشامخ الذي سخر من الزمن ، وسخر من الدهر ثم لم يلبث ان استسلم فشاهت خلقته ، وغارت قوته، ومسخ عنفوانه .

واللوحة تريك ابا الهول مجسما : فهذا جبروته ، وهذا البياض وهذا السواد .. وهذه الرمال على جانبيه .

ولكن ، لا تعتقد انك رايت ابا الهول خلال هذه الصورة ، لانها صورة شوقي اكثر منها صورة ابي الهول ، وهي تختلف عن رؤيتك اياه قبل ان تقرأ هذه الابيات . اما وقد قرأتها ، فان اول ما ستعمله حين تتطلع في تمثال ابي الهول انك تطيل النظر الى عيونه فتبحث عن السواد والبياض ، وعن آثار المنقار .

ان شوقي يرسم ما في نفسه ، وما يوحيه فيها ابو الهول ، وما يسكبه هو عليه .

ولا غرو فهو شاعر يطاوع مقتضيات الشعر الغنائي في فطرته الاولى.

واثر موحيات ابي الهول في نفس الشاعر متنوعة الصفحات ، ففي كل لحظة صورة لا تتصل كثيرا بالصورة السابقة .

بسطت ذراعيك من آدم ووليت وجهك شطر الزمر
تطل على عالم يهلـ ـل وتوفى على عالم يحتضر
فعين الى من بدا للوجو د ، واخرى مشيعة من عبر
فحدث فقد يهتدي بالحديث، وخبر فقد يؤتسى بالخبر ..

وهكذا يسكب شوقي ما في نفسه على التمثال ، دون ان يحاول ان يجلو له صورة واقعية . والملاحظ ان شوقي لا يجيد كثيرا اذا اراد ان يرسم الشيء كما هو امامه ، واذا اجاد ، فلا يطول نفسه ، واذا طال مع الاجادة فاعلم انه لا يرسم اشياء وقعت ، وانما ، اشياء تصورها . فليست اللوحة عنده عرضا للعرض ، انما هي عاطفة شوقي التي تطل من وراء المرئيات ، عاطفته ، او قل حزنه من الدهر ، واله من فعلاته .

وعلى هذا لايصح ان يتخذ شوقي في الجيد من شعره مصدرا للتاريخ، لانه انما يتحدث عن بنات تخيله ، او عن الماضي كما صورته اليه كلمة واحدة وردت في تاريخ ، او كما صورته بقية عاشت بعد اهلها .

نفهم من كل هذا ، ان شوقي في جياد لوحاته ، لا يحلق اذا اراد ان يرسم الاشياء كما هي وكما تبدو ازاءه وازاء الاخرين . ومن هذا انه لا يجيد اذا اراد ان يصور الحاضر والقريب .. حتى اذا اصبح الحاضر ماضيا ، والقريب بعيدا اجاد واحسن ووهب الصورة حياة وقوة يهبها من نفسه وشخصه .

هذا شانه في حياته الخاصة ، وقد رأينا بولونيا وزحله ، وهو شانه مع التاريخ ، وقد وقفنا عند ابي الهول وانس الوجود .واذن ، فالجياد من لوحاته التاريخية لا تمثل التاريخ وانما تمثل شوقي ، او التاريخ كما رآه شوقي في شكواه وتشاؤمه من الحياة وتفكيره في مصيرها ،فتعكس هذه الشكوى علىالرائي ، وتعمل على ان تثير فيه انطباعاته متشابهة .

وشوقي في مجمل هذه اللوحات اقرب الى الشقاء منه الى النعيم ، واقرب الى الحزن منه الى المرح ، مما يدل على انه في اعماقه غير ما يريد ان يبدو للناس ، وغير ما اراد الناس ان يروا فيه ، بعد ان علموا صلته الشديدة بالبلاطات .

هذا ما تمليه علينا جياد اللوحات .. وللمرء ان يذكر في تعليل هذه الظاهرة ـ ظاهرة التأثر بالماضي ، وغلبة هذا التأثر عند الاجاده في الكلام على الحاضر ـ اقول للمرء ان يذكر اكثر من سبب . وبامكانه ان يرد ما تعلق منها بحياته الخاصة ، الى ان الشاعر لم يستطع ان ينصرف كله الى تصويرها ايام وقوعها ، لانه كان يخشى القالة ، ويفكر بنقد الاخرين وسخطهم على سلوكه الشخصي .. حتى اذا بعد الزمن ، وباتت ـ هي ـ ذكرى ، وبات ـ هو ـ شيخا ، انصرف اليها كله ، يعرضها ويعرض اعنف لحظاتها ، وهو يعتقد ان مثل ذلك الماضي لا يمكن ان يسيء اليه والى حاضره .

اما ما تعلق منها بماضي مصر فبامكان المرء ان يرده الى ما هو شائع ذائع من ظروف شوقي ، شوقي الذي نشأ بلاطيا وظلت البلاطية جزءا من شخصيته ونفسه مهما تختلف به شؤون الحياة ، وشوقي الذي عاش في مصر في زمن بدأت تكون فيه للشعب كلمة ، وكلمة ذات بال. يريد الشاعر ان يرضى هذا ، ويريد انيرضى ذاك ، والتوفيق امر غير ممكن لرجل لم تتعدد شخصيته ولم تزدوج في مثل هذه المواقف ـ في الاقل .

ولهذا ، فانه ، حين يصف البلاط يعلم في نفسه انه يغضب الطرف الاخر وحينما يصف الشعب يحذر من وقوع العكس ، فلا يستطيع ان ينصرف كله الى طرف ويهبه كل ذاته .

اما الماضي فهو جنة ، وهو سند ينصرف اليه وهو يعلم انه يرضى بذلك كبرياء الشعب ، وكبرياء البلاط ، كما يرضى نفسه ايضا ، لان الماضي الذي عرضه شوقي او الذي اجاد عرضه هو امر ذاتي ، لا يكاد يزيد نصيبه من الموضوعية على عدد قليل من المواد الخام .

وعلى هذا ، يمكن القول انه لو مد الله في عمر شوقي او لو انه عاش في عصر جمهوري ، توحدت فيه حاجات الشعب وحاجات الحكومة ، وتوحدت فيه اهداف الشعب واهداف الحكومة ، وتوحدت فيه امجاد الشعب وامجاد الحكومة .. اقول لو عاش شوقي مثل هذا العهد المبارك لكان ممكنا انيجلوه في لوحات جياد لا يعوق ريشته ـ وهي تخط وتلون وتظلل ـ خوف من امر خارج عن طبيعة الصورة .

ان هذا يومك يا شوقي ، وبامتنا حاجة الى موهبتك ولفتك .. ولوحاتك .. ورحمة الله عليك .

علي جواد الطاهر

(٤) الشوقيات ١ : ١٥٨ ـ ١٧٠